ابلغ عثمان بك اخويه بهذا الكتاب من فوره وتسلم عبدالله باشا (العم) كتاباً اخر بالمعنى ذاته ولكنه اخفاه عن الآخرين خلافاً للإتفاق الذي تم بينهم، ولم يعلم محمود باشا بحقيقة هذا الكتاب الا بعد ان أنبأه ساع سريع ارسله باشا بغداد الذي عرف بامر الكتاب بطريقة ما والذي اوصى محمود باشا بالقاء القبض على عمه (١٠٣). ومن الطبيعي لم تكن هذه الوشاية العثمانية حباً بشخص محمود باشا الأمير الكُردي بقدر ما هي نكاية بالإيرانيين من جهة وحفاظاً على الانحياز الباباني للأتراك في تلك الحقبة.

ويبدو ان الصدمة كانت قاسية على الباشا ويذكر ريج، ان الأمير بالرغم من ذلك رفض إتخاذ أي اجراءات ضد عمه الحانث بالقسم ولكنه قرر ان يرصد حركات عمه عن كثب، وتأكد من بعد وقطع الشك باليقين من ان عمه عبدالله باشا يعد العدة فعلاً للفرار إلى كرمنشاه.

والحقيقة لم تكن هذه الخيانة الأولى التي يقترفها عبدالله باشا ازاء ابن اخيه محمود باشا، فقبل ذلك بعام سلم باشا بغداد عبدالله باشا إلى ابن اخيه محمود باشا أو بالاحرى غدر به غدراً مثلما غدر باخيه حسن بك، إذ ارسله إلى السليمانية لكن محمود باشا (الشخصية العاطفية) لم يقو على الانتقام من عمه الذي كان قد غدر به وتواطأ مع باشا بغداد، بل عامله معاملة حسنة واقطعه ارضاً فسيحة خصبة في كُردستان ليستعين بها على العيش واطفاء الديون المستحقة عليه في بغداد، لكن عبدالله للاسف لم يصبر على احسان ابن اخيه فعاد الى التواطؤ ولكن مع الفرس هذه المرة.

يصف ريج مشاعر الباشا ازاء خيانة عمه فقد كان الباشا يزور مستر ريج مساءً، إذ يقول، كان منقبض النفس كثيراً وقد تكلم عن اعمال عمه بتأثر عميق وعن شعوره عند اكتشاف الخيانة وقد دلت المشاعر التي افصح عنها (وكانت لا ريب مشاعر صحيحة) على درجة من الاحساس والإخلاص وحسن السيرة، لا أتذكر انني لمست مثيلها في الشرق مطلقاً، كما انني لم اجدها في البلاد الراقية كثيراً (١٠٤).

لقد كان الباشا في الحقيقة يعاني من صراع نفسي داخلي والسبب في هذا ضعفه النفسي ازاء كثير من الامور ومنها العلاقات العاطفية الاسرية لاسيما المواقف الخيانية لعمه والمه الشديد منه كما يمكن ان يستشف من يقرأ تاريخ بابان ان محمود باشا يتعذب نفسياً لانه زج عمه في السجن على الرغم من قناعته انه يستحق ذلك وقد وصل الامر بمحمود باشا ان اخذ يفكر في اطلاق سراح عمه بعد ان لانت نفسه وغاض غضبه بيد انه كان حذراً من باشا بغداد إذ كانت مثل هذه الامور تتطلب موافقة والي بغداد فباشوية السليمانية كانت تتبع ولاية بغداد ادارياً. لقد كان محمود باشا يرغب في اعمار المنطقة ولكن الحالة القلقة التي كان يعيشها بين القوتين الفارسية والتركية اثرت كثيراً وبالشكل السلبي فقد كان الباشا بحاجة

الى شيء من الإستقرار.

لقد قال احد الأكراد لمستر ريج، انهم لايستطيعون تشييد البيوت العامرة أو ترميمها وهم غير موقنين من بقائهم أو من قدرتهم على التنعم في هذا العمران (٦٣). هذه الحالة اللامستقرة كان قد شخصها عثمان بك ايضاً شقيق محمود باشا إذ قال له، ان بلادي في حالة تعسة فاذا خدمت الأتراك حقدوا عليك وخلعوك متى شاؤا واذا خدمت الإيرانيين أضجروك بطلب المال على الدوام.

ان إمارة بابان كانت بسبب الظروف السياسية القلقة المحيطة بها تعاني من ضعف قدرتها على التفرغ للزراعة تفرغاً كلياً في الوقت الذي كان يمكن للزراعة ان تطور هذه الإمارة تطوراً شاملاً وعميقاً ولقد ذكر بعض رجال هذه الإمارة ذلك لمستر ريج مثل محمد آغا الذي ابدى رأيه في مساوئ الافتقار، الامر الذي ادى الى عدم تكريس انفسهم الى الزراعة (٦٧).

يبدو محمود باشا في منظور مستر ريج شخصية عاطفية ضعيفة وفي الوقت نفسه تماماً تحت تأثير القيم والمبادئ الإنسانية التي على ما يبدو عملة يصعب صرفها في سوق السياسة لاسيما عندما تكون الديمقراطية غائبة تماماً.

يقول ريج مثالاً على وجهة نظره، ان داود باشا والي بغداد انكر جميل محمود باشا وعامله بالغدر والخيانة ولكنه استطاع من بعد ان يكسبه كل الكسب ببضع كلمات طيبة، وهو الان في الحقيقة -على حد تعبير ريج- متعلق بداود باشا كل التعلق وقد ابدى ريج عجبه وليس إعجابه من باشا السليمانية الذي قال لريج بانه سيخدم داود باشا طيلة حياته، ويعقب ريج على هذا ان قول محمود باشا لم يكن مجرد ادعاء (٦٧).

الحقيقة نحن نعتقد ان موقف محمود باشا شبيه بالعديد من المواقف السياسية قبل محمود باشا وبعده مع السلطات المركزية، والموضوع ليس ضعفاً في الشخصية فحسب بل هو ضعف في الموقف السياسي والعسكري للولاة الكُرد فما من شيء كان عبر التاريخ ولم يزل يوحد تركيا وإيران على الرغم من كل صراعاتهما مثل القضية الكُردية، حتى عندما لم تكن هناك نوايا قومية عند هذا الأمير أو ذاك فان الأمير الكُردي وامارته بقيا مادة تحالف بين الدولتين الفارسية والتركية بدوافع عنصرية من هاتين الدولتين، ومن هنا لم يكن للحكام الكُرد مفر من الإرتباط باحدى هاتين القوتين هذا مما جعل هؤلاء الحكام يستبعدون من افكارهم النوايا القومية المشروعة، ومن هنا نجد ان المستر ريج حاول في الحقيقة ان يحرك في الأمير البابانى الشعور القومي ولكنه لم يجد أي رد فعل لديه إذ يقول، لقد سعيت لأحرك فيه -ويقصد محمود باشا أمير بابان- شعوره القومي والعائلي ولكن دون جدوى، بيد انني كنت احس بوجود قليل من الحماسة عنده عندما كنت اتطرق الى تاريخه القديم -ويقصد تاريخ الكُرد

القديم- والمنزلة التي قد ينالها قومه بين الأمم المستقلة إلا ان تلك الحماسة ما كانت الا سراباً (٢٢٩).

نعتقد ان النوازع الدينية العميقة لمحمود باشا اثرت بدورها في عدم التفكير قومياً آنذاك وذلك لسببين اولهما ان محمود باشا كان يخشى الأتراك أو الدولة التي يرأسها (الخليفة) وهذا ما شخصه ريج بشكل واضح إذ يقول، ان خطأ الباشا الكبير هو ضعفه وإحترامه للأتراك الإحترام الكلي المنبعث في الحقيقة عن الشعور الديني (٢٢٣) وكثيراً ما استغربت ضعف الباشا النفساني في هذا الشأن وثانيهما ان الباشا كان يعاني من قلق مستديم لتحمله مسؤولية حكومة بابان المنتمية الى والي بغداد وبالتالي الى الدولة العثمانية إذ يخشى ان يقع في خطأ فيحاسبه الله مما جعله ضعيفاً وقلقاً في إتخاذ القرارات فكيف إذ اصبح دولة مستقلة ان الباشا يعترف بذلك لريج بعد ان افصح له عن رغبته في التخلي عن منصبه فاجابه ريج ان عليه ان يقوم بواجب المنصب الذي اختاره الله له فقال الباشا: لاشك في ذلك ولكنني اعجب كيف قضت ارادة الله ان تجعلني حاكماً؟ فاجابه ريج ان ذلك كان لصالح هذه الالاف من الناس فاجاب الباشا: اواه ما أشد الحساب الذي علي تأديته في الاخرة وانا لوحدي المسؤول عن تأدية الحساب يوم الدين عن كل ما يقع من الاضطراب في حكومتي (٢٢٩).

مما تقدم يمكن ان نستنتج ان أمير بابان في الحقيقة لم يكن اميراً سياسياً مؤهلاً وابدى من الضعف الكثير امام الممثل البريطاني الذي نعتقد ان الغاية الأساس من رحلته كانت دراسة سياسية للمنطقة اميراً وحكومة وشعباً.

لقد تعاطف ريج مع الأمير من باب الاشفاق الشخصي ولكنه على ما يبدو من مجمل إنطباعاته انه لم يكن مقتنعاً به كأمير أو كمسؤول سياسي ومع هذا فقد استطاع ريج كما ذكرنا تحويل موقف محمود باشا ايجابياً.

الحقيقة لم يكن محمود باشا يعيش في فراغ بل ان مظاهر الإعتزاز القومي بالسليمانية كعاصمة كردية بابانية كانت واضحة، فقد سجل ريج عبارة لاحد الحاضرين في مجلس حضره عندما قال ذلك الكُردي اليس من العار ان يرضى امراؤنا بالذهاب الى بغداد إذ يكرهون على الاذعان الى تركي ابتيع قبل مدة كما تبتاع الانعام ببعض مئات من القروش وهو اذا انفعل - أي التركي- خاطب اياً منا بقوله -ايها الكُردي الحمار- ثم انبرى اخر من الحضور وهو يحدث ريج ان ليس للأتراك ولا للإيرانيين حول في ايذائهم الا باستغلال انشقاقهم والمنافسة العائلية القائمة بين رؤسائهم وان دمارهم من تحاسد امرائهم (٦٣).

ان عبد الرحمن باشا وهو اسبق من محمود باشا كان يتمتع بروحية إستقلالية افضل من محمود باشا كما ان نزعته القومية كانت واضحة على الرغم من انها لم تقترن بفعل سياسي

أو عسكري.

لقد كان عبد الرحمن باشا، على ما يذكر ريج، يرغب في ان يجعل جراية بلاده الى الباب العالي مباشرة، أي ان يكون مستقلاً عن أي باشا مجاور أو بالاحرى عن بغداد، وكان راغباً في ان يدفع الى العاصمة نقداً وبصورة منتظمة أي جراية سنوية قد يطلبها الباب العالي، على ان يتبع اوامر السلطان دون غيره، وان لايكون عرضة للعزل أو الاقصاء أو التدخل بالشؤون الداخلية لمنطقته الا في حالة العصيان هذا من جهة ومن جهة أخرى فان تمسك عبد الرحمن باشا القومي والوطني كان واضحاً تماماً عندما عرض على عبد الرحمن باشا حكم بغداد ولكنه رفض توليه المنصب باباء قائلاً: حقاً انني بذلك ساصبح وزيراً من الدرجة الأولى أي احد الاعمدة الرئيسة في الدولة العثمانية - غير ان جرعة واحدة من ماء ثلوج جبال بلادي تساوي قيمتها عندي رتب الامبراطورية بكاملها وان انتقالي الى بغداد سيزيد نصيبي من نعم الحياة، ولكنه سيؤدي اخيراً الى دمار العائلة البابانية (٦٨).

ان ريج يصف هذا الرفض بالرأي الرشيد الحكيم وعلى الرغم من المحتوى القومي الرائع الذي يمكن ان نتنسّمه من عبارة عبد الرحمن باشا فان ثمة سؤالاً يمكن ان يطرح في هذا الصدد. لو اصبح عبد الرحمن والياً على بغداد، والسليمانية بطبيعة الحال كانت إدارياً تابعة الى باشوية بغداد فهل كان في ذلك خسارة فعلية لحكومة بابان؟

أي ألم يكن بالإمكان ان يخلف عبد الرحمن احداً غيره في ادارة بابان في السليمانية أو عندما يتولى عبد الرحمن (البابانى) بغداد والسليمانية في الحالتين أي في رفض أو موافقة عبد الرحمن باشا كانت ملحقة ادارياً ببغداد؟ هذا ما لايستطيع الإجابة عليه غير عبد الرحمن باشا (فالامور مرهونة بأوقاتها).

ان هذه امثلة جئنا بها في هذا المجال للتدليل على المناخ السياسي القومي في منطقة بابان آنذاك ولكن على ما يبدو فان محمود باشا كان غير آبه تماماً بالجانب القومي، أو لنقل انه كان لايريد ان يظهر بمظهر الأمير القومي، حتى كان متحفظاً في تاريخ عائلته بعكس عبد الرحمن باشا وقد اشرنا في فصل (الشخصيات الكُردية) الى تحفظ الباشا من التاريخ.

ان الحديث بين ريج ومحمود باشا حول التاريخ لم يكن الأول من نوعه، فقد سبق لريج في الايام الأولى من وصوله السليمانية ان طلب من محمود باشا كتاباً عن تاريخ الأكراد، وكان قد وعد بان يبذل كل ما في وسعه ليجد لريج نسخة من تاريخ كُردستان الذي يصفه ريج بـ(الشهبر) والمسمى بتاريخ الأكراد.

لقد ذكر ريج للباشا وللحضور قصة زينفون والعشرة الاف ووجد علائم الإهتمام البالغ

ظاهرة على وجوههم عند استماعهم للقصة يقول ريج في وصف تلك الجلسة: كان المنظر بديعاً جداً يؤلف مادة ممتازة للرسم وقد صرح الباشا ببساطة تنم عن حسن طوية قائلاً: ليت شعري هل كان لعائلتي خطورتها في ذلك الدور؟ (٧٦) أي ان الباشا كان يريد ان يعرف ما اذا كان لعائلته دور في تقهقر الغزاة.

يبدو ان عثمان بك وهو الاخ الاصغر لمحمود باشا كان أكثر إهتماماً بالسياسة ويحمل هماً قومياً فقد ذكر ريج ان عثمان بك كان يميل الى التكلم عن شؤون البلاد الكُردية بحرية جاوزت الحد الذي اردت تشجيعه عليه (٥٥).

ترى ما هو الحد الذي كان ريج يريد عثمان بك ان يتوقف عنده، عند الحديث عن شؤون البلاد الكُردية هذا ما لايمكن التكهن به، ولكن ريج يذكر ان عثمان بك لم يكن ميالاً الى الأتراك بيد اننا نعتقد ان ريج يقصد من عبارته هذه (ربما) عثمان بك كان قد فاتحه بفكرة الانسلاخ الكلي عن الدولتين التركية والفارسية أي قيام دولة بابان المستقلة بدلاً مما كان يوحي به ريج بالانسلاخ عن تركيا وموالاة إيران.

لقد تحدث ريج وعثمان بك في الشؤون الخارجية والحقيقة لم يكن حديثاً قدر ما كانت اسئلة واستيضاحات يقدمها عثمان بك ويجيب عليها ريج.

يقول ريج في إنطباعاته عن عثمان بك ان اسئلته كانت معقولة كما وانه كان يجيب على اسئلة ريج بشكل ينم عن ذكاء كما يعترف ريج في إنطباعاته وقد ابدى عثمان بك اعتذاراً لريج عن رغبته في الاستطلاع وكثرة اسئلته بقوله: وقد اكون فظاً، ولكن تذكر ما يشعر به الكُردي من غرابة في التحدث مع احد الإنكليز، ومن رغبة لابد ان تجيش في صدره لاستغلال ذلك الحديث ومعرفة الامور التي لايمكن له الوقوف عليها بطريقة أخرى تلك الامور التي لابد ان تعود عليه بالنفع فوعده ريج بانه سيجيب على اسئلته بكل حرية. يبدو ان عثمان بك كان يريد ان يستطلع وبشغف صيغة نظام الدولة البريطانية والفرنسية والروسية، وعن مراسيم البلاط في إنكلترا وتشكيلات الجيش البريطاني وقد أكثر من الاسئلة العسكرية. وقد لاحظ ريج ان عثمان بك كان غير مكترث بالاسئلة عن السلطان واستانبول والأتراك. ثم عرج عثمان بك في اسئلته على معركة واترلو واراد ان يستوضح المزيد عنها ثم اراد ان يفهم شخصية بونابرت، وبعد ذلك بدأ يسأل عن استعمار بريطانيا للهند وأسباب التوسع في الفتوحات اذا كانت الممتلكات البريطانية آنذاك، تزيد فعلاً عن مقتضيات رفاهية بريطانيا وقد اوضح له ريج وجهة نظره.

ومن الامور العسكرية التي كان عثمان بك يريد ان يعرف شيئاً عنها وعن مدى صحتها، هي المناطيد العسكرية وعن حقيقة قدرتها على نقل مفارز الجنود الى أي محل مقصود.

ويذكر ريج ان عثمان بك قد سر كثيراً عندما عرف ان في بريطانيا ايضاً توجد (عشائر) ويقول لقد كان عثمان بك دقيقاً جداً في اسئلته عن اطوار العشائر البريطانية ولغتهم واخلاقهم، وقد رجاه ان يذكر بعض اسماء تلك العشائر وقد فتنته فكرة الكتائب العشائرية بازيائها الخاصة وضباطها ولكنه استغرب ان تكون الطبقة الحاكمة من الإنكليز من ابناء المدن، غير العشائريين.

وكان استغرابه اشد عندما اعلمه ريج ان ابناء المدن جنود بواسل هم الاخرون. وعندما تحول الحديث عن اميريكا وكيفية اكتشافها ثم نظام الحكم في الجمهورية الاميركية (الولايات المتحدة) علق عثمان بك على هذا النظام بانه شبيه بنظام عشائر خوشناو الكُردية إذ يترأس كل قرية رئيس وهم يجتمعون سوية للتشاور في صالح العشيرة بكاملها.

وعندما علم عثمان بك ان ما من احد يجرؤ على الجلوس في حضرة الملك البريطاني تعجب كثيراً ثم سأل بعجب (وحتى ارباب الدين؟) فاجابه ريج بالنفي فقال عثمان بك بلهجة الرضى وهو يدير وجهه إلى البعض من الحاضرين الكُرد قائلاً (أرأيتم ذلك، ليس للملالي من سطوة في بلاده) وهذا ما يوضح سطوة رجال الدين على أمير بابان وتشخيص عثمان بك لهذه المشكلة، ويبدو انه كان لايرتاح من تدخل بعض رجال الدين في شؤون اخيه الأمير أو في شؤون ادارة الإمارة باشكال تاثيرية مباشرة أو إيحائية غير مباشرة.

ويذكر ريج ان عثمان بك استمر في الاسئلة لكنه لم يهتم بالسلطان أو باستانبول بل كان يسأل عن معركة واترلو وعن نابليون بونابرت وعن الصين وعن كروية الارض ومن الاسئلة التي سألها عن سبب الفتوحات البريطانية والتوسع المستمر في الفتوحات. وقد حاول ريج ان يكون جوابه جواباً دبلوماسياً وعلى الطريقة الإنكليزية فقد اوحى بجوابه ان بريطانيا ان لم تستعمر هذه المناطق ومنها الهند فان غيرها من الدول سوف تستعمرها وعند ذاك ستستخدم هذه المواقع ضد بريطانيا، وهكذا فان بريطانيا حسب ريج وجدت نفسها مضطرة دفاعاً عن نفسها في استعمار هذه البلدان.

بعد ذلك تحدث عثمان بك عن الحالة في كُردستان، إذ قال لريج ان بلاده في حالة تعسة (فاذا خدمت الأتراك حقروك وخلعوك متى شاءوا واذا خدمت الإيرانيين اضجروك على الدوام بطلب المال).

ويعلق ريج على شخصية عثمان بك قائلاً انه كردي حق، وقد وجدته عند مغادرتي له ودوداً إذ قال لي انه يعدني واحداً من عشيرته وانه يرجو دوام الصداقة الحميمة بينهما (٦٨-٧١).

وينقل ريج في مناسبة أخرى من لقاءاته مع عثمان بك مقته للأتراك إذ قال لريج: انهم مجبولون على الخداع والغطرسة ولايحسن احد معاملة الأتراك غيره فمن خطته أي خطة عثمان بك في التعامل مع الأتراك تحقيرهم وعدم الثقة بهم قط فالتركي من وجهة نظره لايتصرف تصرفاً محموداً الا إذا حمل على الخشية وعومل معاملة فظة. وقد ايد ريج جزئياً وليس كلياً وجهة نظر عثمان بك في الأتراك (٨٨).

ان إنطباع ريج عن عثمان بك في ذروة الازمة التي كان يمر بها إنطباع ينطوي على الإعجاب بموقف عثمان بك يوم لم يرغب في تنفيذ امر اخيه الباشا في الذهاب الى كويسنجق وتسلم حاكميتها وادارتها إذ يقول ريج، لقد ذهبت لزيارة عثمان بك وكان في مظهر الجد على عادته الا ان نوعاً من مسحة العزم والقسوة كانت تبدو عليه مثله مثل الرجل الذي اسند ظهره الى الجدار ويبدو ان محمود باشا يصر -بناء على توصية باشا بغداد العثماني- اصراراً شديداً على اخيه ليتقبل منصبه وهو حاكمية كويسنجق وهذا ما يرفضه عثمان بك إذ انه يخشى ان يتغلب الأتراك عليه فيتسلموا ازمة الامور بايديهم حالما يتنحى هو عن طريقهم الامر الذي يعني خراب بلاده المحقق.

ان باشا بغداد التركي لايرغب في تضامن العائلة ولايحتمل مطلقاً وحدتها وهو الان يسعى لتنحية عثمان بك واحلال التنابذ بينه وبين اخيه اما تصرف عثمان بك فقد كان في الحوادث الأخيرة جميعاً تصرف الرجل الشريف الذي لايحمل في دخيلة نفسه الا الخير للبلاد وضمان منافعها وخطأ الباشا الكبير هو ضعفه وإحترامه الكلي للأتراك هذا الإحترام المنبعث في الحقيقة عن الشعور الديني (٢٢٣).

لقد اوضح لريج حتى موضوع عمهم عبدالله باشا فهو يرى من أكثر الامور التي اسندت اليه وعلى الرغم من ان الباشا لان بعض الشيء حسب تعبير عثمان بك وطلب من باشا بغداد (داود باشا) ان ياذن له بالإفراج عن عمه لكن داود باشا لم يسمح لمحمود باشا بذلك.

ويقرر ريج انه مهما كانت اغلاط عثمان بك فمن المؤكد انه تصرف تصرفاً شريفاً في جميع الامور التي وقعت اخيراً. انه اقنع اخيه بان لايتنازل عن منصبه ورفض دعوة أمير كرمنشاه بالذهاب اليه وكان في كلتا الحالتين يعلم علم اليقين بانه لو فعل ذلك لاصبح هو الباشا.

ثم ينتهي ريج الى التعبير عن حزنه إذ يقول، ومما يحزنني ان ارى مثل هؤلاء المخاليق الأتراك يبذرون بذور الشقاق بين اعضاء هذه العائلة المحترمة (٢٢٤).

لقد استرعى إنتباه ريج نوع من الديمقراطية شاهدها بين ابناء عشيرة بلباس الكُردية ويذكر ان لكل رجل مهما كانت منزلته الحق في ابداء الرأي في الشؤون العامة، فقد يجري الإتفاق

مع الرؤساء البلباسيين على صفقة تجارية فينهض فجأة احد افراد العشيرة ويقول (لا اوافق على ذلك) وهذا القول وحده يكفي للقضاء حالاً على الإتفاق بكامله أي ان تنفيذ رأي رئيس العشيرة يجب ان يحظى بالموافقة بالإجماع وليس بالأكثرية (١٠٥).

ويگـرام

لقد اتسمت السنوات التي قضاها ويگرام في كُردستان (في العقد الأول من القرن العشرين) بصراعات كثيرة بين الكُرد المسلمين والكُرد المسيحيين في كُردستان بتشجيع مباشر وغير مباشر من الدولة العثمانية هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الزعامات الكُردية المتصارعة كانت تعاني من قلق مشروع ازاء مصير المنطقة وهذا ما وجدناه واضحاً من خلال احاديث ويگرام مع رؤساء العشائر لاسيّما الشيخ عبد السلام البارزاني.

ان ويگرام يدعو في مذكراته الى ضرورة وجود زعامة كردية قوية تحكم كُردستان بدلاً من الحكام المتنافسين ولايشترط ويگرام ان تكون هذه الزعامة زعامة ديمقراطية فهو يعتقد ان أي زعامة كردية تحكم بلاد كُردستان لهو تقدم عظيم باهر ومهما كانت تلك الزعامة طاغية فهي على حد قوله خير من حكم منافسين عديدين (٢٨٨).

ان عبارة ويگرام هذه تجعلنا نقف تماماً على حقيقة الحياة السياسية آنذاك ومدى التمزق الإجتماعي الذي كان يعاني منه المجتمع الكُردي بسبب تعدد الزعامات، وهذا التمزق الذي كان من المؤكد يحظى بدعم من الدولة العثمانية مركزياً، اما على صعيد الادارة الداخلية في كُردستان فقد كان المواطنون الكُرد يعانون الامرين من الموظفين الترك. فعلى الرغم من ان ويگرام يمتدح الإنسان التركي كإنسان له خصال حميدة ولكنه كما يقول ويگرام، كإداري فهو رجل كريه ممقوت انه لأكسل من ان يقوم بتصريف حسن لأمور وهو يترك جهاز ادارته المدني الفاسد في وضع لايمكن وصفه من التردي (١٦٦). وهنا يمكن ان نكون صورة عن الواقع السياسي والإداري تحت ظل جهاز إداري من هذا النوع اضف الى ظاهرة ابتزاز الموظفين الترك للاكراد تحت مختلف الذرائع كانت مسألة شائعة.

ان هذه الحالة جعلت الناس تضيق ذرعاً بالفوضى والتسيب الحكومي، كما يذكر ويگرام، ولعجزهم عن إقامة أي نوع من أنواع الحكم الذاتي خلال حكمهم القبلي الاقطاعي فانهم بدءوا يرحبون بأي تغير أو تدخل أجنبي، كما ويذكر ان الاغوات الكُرد يرحبون بدخول الإنگليز لأسباب أخرى شخصية (٢٩٢).

يظهر من إنطباعات ويگرام ان الكُرد من مسلمين ومسيحيين كانوا مادة صراع واستغلال

إيراني وتركي، ففي الوقت الذي كانت تركيا تؤلب الكُرد المسلمين على الكُرد المسيحيين كانت إيران تؤلب الكُرد المسيحيين على الكُرد المسلمين، هذا ما يتضح بسهولة من خلال ويگرام آنذاك.

ويذكر ويگرام في عام ١٩٠٦ عزمت الحكومة الإيرانية على ان تبذل الجهود لخضد شوكة الكُرد واخضاعهم فجردت قوة عسكرية الى هذه الجبال لتحقيق ذلك. وطلبت الحكومة من المسيحيين مساندتها. فما كان من السلطات التركية الا أن انتهزت هذه الفرصة للتدخل مؤملة بهذا ان يضمنوا لانفسهم اقليم حدود طالما اشتهته نفسها وارسلت قوة تركية لهذا الغرض ربما استجابة لطلب الكُرد وما ان بدأت هذه القوة حتى ولى الجيش الإيراني الأدبار ولم يقف حتى في أورميه خوفاً وهلعاً اما حلفاؤهم الآثوريون الذين استنفروا من قرى (تَركَوَر) وكانوا وحدهم قد تصرفوا تصرف الرجال في ذلك اليوم المخجل فلم يفكر احد في مصيرهم.

لقد اصبحت أورميه في تلك الفترة منطقة روسية ويثني ويگرام على النظام الروسي من حيث انه لم يحبذ استمرار التناحر والصراع الدموي بين العشائر (١٧٩-١٨٠).

ان الكُرد بطبعهم ليسوا متزمتين ازاء الاديان الأخرى ولكن الدولة العثمانية كان لها دور قذر في تأليب العشائر والاديان والطوائف بعضها على بعض.

ان ويگرام الذي شوهد في مناطق عديدة من كُردستان دون إنطباعاته عن الكُرد المسلمين بازاء المسيحيين عموماً وزعماء طوائفهم خصوصاً، فعلى سبيل المثال يذكر ان في منطقة حكاري (الاسم العام للمناطق الجبلية في جنوبي كُردستان) يكن كل كردي إحتراماً عظيماً لمار شمعون (الرئيس الروحي للآثوريين) ويعده زعيماً رسمياً لرعاياه، ويعده رجلاً ذا قداسة موروثة بأكثر ما يكون المسيحي ذا قداسة في نظرهم وكثيراً ما يعد المسلمون المتزمتون لحم الحيوان الذي يذبحه المسيحي مما لايصح ان يأكله لانه لايمكن الجزم بانه حلال ولكن اذا ذبح حيوان بيد احد افراد اسرة مار شمعون فلن يتردد اشد المسلمين تحرجاً من اكله وهو حلال، ولاسيّما اذا نحر بسكين معينة هي من جملة موروثات تلك الاسرة (٢٥٣-٤).

ونجد ان ويگرام (وهو رجل دين مسيحي ومبشر) لايتحيز للمسيحيين فهو يذكر بموضوعية اخطاء المسلمين والمسيحيين بازاء بعضهم البعض، فعلى سبيل المثال نجد ويگرام ينتقد بمرارة بعض المواقف المسيحية في المنطقة إذ يقول، ان الذمة تقتضي ان ننوه بدور ذوي الرؤوس الحارة من المسيحيين الذين بذلوا اقصى ما في طوقهم لتأجيج النار، فقد اقدموا على لعبة حقيرة قذرة للسخرية والتندر على المسلمين بإستخدامهم النعرات المذهبية بين الشيعة والسنة إستخداماً شنيعاً فاطلقوا اسم ولي مسلم على كلب واطلقوا اسم ولي اخر على ثان والبسوا الأول ثياب جندي ووضعوا على ظهر الاخر حلة الملا واطلقوا احدهما على الآخر ليمزقه.

لامراء في ان هذا العمل الدنيء كان كفيلاً باثارة مشاعر اناس أكثر وداعة ومسالمة (١٧٧).

ويذكر ويگرام ايضاً حادثة كأنموذج من اعتداء مسيحي على مسلم ورد الفعل الذي صاحب ذلك فقد قام بعض ذوي الرؤوس الحارة من التيارى -كما يصفهم ويگرام- بدافع من سخطهم من رفض الأكراد اجراء مصالحة معهم كانوا هم قد اقترحوها عليهم، فقاموا بغارة على أراضي البرواري وقتلوا اخا رشيد بروارى. وهو احد رؤساء عشيرة البرواري فما كان من هذا الا ان انتزع الرصاصة من جسد اخيه وارسل رسالة الى آغا وادي ليزان وهي الجهة التي اقبل منها الغزاة، يقول فيها انه يحتفظ بالرصاصة التي قتلت اخاه ليدفنها مع آغا ليزان، وهو كما يقول ويگرام - جزاء وفاق والحق يقال - الا انه أي رشيد اشتط وتعدى الحد المناسب وضرب بكل قواعد الثأر حينما اعلن (جهاداً ضد المسيحيين) في امر لايمكن إعتباره أكثر من مجرد ثأر قبلي (٢٨٤).

ويورد ويگرام حادثة لها مدلولها الجميل في هذا السياق إذ ان زهر آغا زيرنكي كان احد الأكراد الذين تحدوا الحكومة بايوائه الأرمن المطاردين عندما لجأوا الى منطقته في تلك الايام السود وادركهم الجزارون وهم في حماه وقالوا له، ان امر السلطان قد قضي بقتل كل هؤلاء الأرمن الكلاب (كذا). فاجاب الآغا بجرأة وإعتزاز، انه لايفهم أي امر من أي سلطان يلزم سيداً ذا كرامة بتسليم ضيوفه ليقتلوا بحد السيف وكان اللاجئون قد استاقوا معهم عدداً قليلاً من الماشية والسائمة فسارعوا بتقديمها لمنقذهم، فأبى قبولها وزاد من كرمه فسمح لهم برعيها مع قطعانه حتى يعودوا الى ديارهم وهكذا كان. ويعقب ويگرام على هذه الحادثة، انه خير مثل للجنتلمان الكُردي لا بل أي جنتلمان في أي بقعة من بقاع الدنيا مطلقاً (٢١٣).

ان ويگرام لايغفل الوجه الاخر من الصورة وهو انزلاق الكُردي بتأثير من تصعيد الحماس الديني بشتى اشكال الخطط والمؤامرات المرسومة من قبل الدولة في جعل بعض القبائل الكُردية ادارة تنفيذ مسخرة لاهواء الدولة وهم للاسف يعتقدون ان ما يقومون به لمراضاة الله وتعاليم الدين.

يذكر ويگرام بهذا الصدد، ان مذبحة دياربكر لتصفية الأرمن كانت قد تمت بتدبير وايعاز من حكومة اسطنبول الا ان الاداة المسخرة البريئة التي استخدمتها للتنفيذ كان الأكراد المتعصبون -يقصد التعصب دينياً- الذين اندفعوا الى احياء المدينة من القرى المجاورة للمشاركة في المذبحة المدبرة والاسهام في النهب الذي عقب ذلك.

كانت المذبحة سياسية لا علاقة لها بالدين والدليل على ذلك ان المسيحيين السريان وعددهم في دياربكر كبير -لم يصبهم شيء مما حل بالأرمن اخوانهم في الدين- كما ان من لجأ الى بيعة اليعاقبة لم يلحقهم أي اذى خلا الافراد الذين وقعوا ضحية هياج الغوغاء(٤٠).

ان ما تقدم يشير ان المذبحة، فعلاً كانت ذات اغراض سياسية وليست مسألة مسلمين ومسيحيين وحسب. ان الدولة العثمانية كما يبدو كانت تتوجس من الأرمن بشكل خاص، وذلك بسبب روحهم القومية وأهدافهم في الإستقلال عن الجسد العثماني، بينما كان المسيحيون الاخرون يتصرفون تصرف الاقلية التي لا حول لها ولا قوة.

ان سوء الادارة وتسببها في مذابح مريعة بين مختلف الشرائح كانت مدعاة استنكار العديد من -الرؤساء الكُرد- ولابد من توضيح حقيقة تاريخية وهي ان نجاح الدولة العثمانية في تأليب بعض الكُرد المسلمين على الكُرد المسيحيين في كُردستان لايعني قطعاً انها نجحت في تأليب الشعب الكُردي المسلم كله على الكُرد النصارى كلهم.

ان الشيخ عبد السلام البارزاني، على سبيل المثال، كان احد ابرز الرؤساء الكُرد روحياً وعشائرياً ولكنه كان يستنكر ويشجب تصرفات الدولة العثمانية بازاء الاقليات الدينية الى درجة ابداء استغرابه لعدم تدخل الدول الكبيرة مثل بريطانيا وروسيا للحد من السياسة التعسفية الدموية للدولة العثمانية (١٣٧).

يذكر ويگرام، ان الشيخ عبد السلام البارزاني كان ينعى فقدان سيادة القانون في كل مكان وهو في رايه ان هذا من سوء حظ المسيحيين والمسلمين.

لقد تساءل الشيخ عبد السلام البارزاني منه مستغرباً عن عجز بريطانيا وروسيا من ادخال الإصلاح الى هذه البلاد، أي كُردستان، ووجه سؤالاً مباشراً الى ويگرام إذ قال له، لقد ذهبتم الى الهند وبقيتم هناك مع انهم لايريدونكم لماذا لاتأتون الى هذه البلاد فأهلها يريدون التعلم منكم (١٣٧).

يعقب ويگرام على هذا الحديث الذي تحدث به الشيخ البارزاني، انه تعبير عن مشاعر ملموسة عند الشيوخ البارزانيين كلهم ذوي المقام الرفيع، فهم كما يقول ويگرام يحترمون أي حكومة صالحة قوية بصرف النظر عن هويتها أو مذهب شعبها الديني.

ان مطالبة شيخ روحاني مسلم بتدخل دول من ديانات أخرى في ايقاف التعسف الدموي للدولة العثمانية المسلمة وحقن الدماء الكُردية المسلمة والمسيحية في كُردستان امر له مدلوله التاريخي الذي يجب ان يوضحه التاريخ للابناء والاحفاد (١٣٧).

ولقد ذهب الحماس بالشيخ عبد السلام البارزاني الى درجة الإعراب عن رغبته للذهاب وزيارة رئيس أساقفة كانتربري والملك جورج من اجل فتح مدارس في كُردستان والبحث في القضية الكُردية، وقد اشرنا الى هذا في موضع اخر من هذا الكتاب.

ان ويگرام ينتقد نظام الحكم التركي ويصفه بالنظام المتعود على معالجة الاخطار باللجوء

الى المكر والخديعة كما انه انتقد (الدستور) الذي لم يستطع إصلاح الامور إصلاحاً كلياً، رغم اعادة المبعدين واطلاق سراح السجناء السياسيين.

وقد عايش ويگرام الظروف السياسية الملتهبة في دياربكر. ويمكن ان نلمس من مذكرات ويگرام في دياربكر ان الدولة عانت من سياستها فقد استثارت اعمالها العنصرية بازاء الأرمن السفارات الأجنبية كذلك فانه يؤكد ان الكُرد لم يكونوا راغبين في أي مذبحة مع الأرمن لكن بعض المتعصبين كانوا يستثارون من بعض المشاغبين.

ويتطرق ويگرام الى الوضع المقلق لمدينة دياربكر بسبب وجود عبد الرزاق آغا حفيد بدرخان بك الذي كان قد عرف بطموحه بإستقلال وبحكم بلاده تحت حماية الروس وإتخاذ لقب (ملك كُردستان الموحدة) (٤٢). ربما هذا القلق كان من صنع المشاغبين والمغرضين الذين اخذوا يبذرون الشائعات من ان عبد الرزاق بدرخان ينوي القيام بمذبحة للمسيحيين. والحقيقة فان دوافع هذه الاشاعات معروفة تماماً. فهي سلاح فعال بيد الحكومة العثمانية للإساءة الى سمعة الحركات التحررية الكُردية في المجتمع الدولي (٤٢).

مارك سايكس

يحدثنا مارك سايكس عن اشكال التعامل العثماني مع الكُرد وكيف ان الدولة كانت تحاول ان تمرر من خلال الالتفاف على المذهب السني في الاسلام لتفسير حقوق الخليفة الصارمة التي تمنحه الاوتوقراطية بعدم الاكتراث لسعادة تابعيه واراحة فكره اي فكر الخليفة من أي وخزة ضمير ازاء أي نقد.

ولإقناع أو إغراء الكُرد للتنازل عن خيامهم وعاداتهم في عمقها السحيق كان على الدولة افهامهم معنى الأكثرية الضخمة التي تسمى بـ(الفلاحة التركية) والخطوة التي تليها غرس سلطة الخليفة الدينية في نفوسهم والتي ستحولهم إلى عبيد طائعين.

ان من الامثلة الجيدة التي توضح هذه السياسة ما حصل لقبيلة الزركان الكُردية، فمن خلال التملق والتزلف والمداهنة والتغرير بأغوات (رؤساء) قبيلة زركان الذين غرر بهم لجعل القبيلة تزرع الأراضي المحيطة بقراهم وتعميق الخداع لاقناع هؤلاء الناس لتلبية رغبات الحكومة يمكن ان تحكم من خلال (الحقيقة) التي هي الاقتناع والتصديق ان الارض هي ليست مكانهم ويمكن ان يطردوا منها في أي وقت بالقوة ولكن بالنظر لرحمة السلطان فانه قدمها لهم كهدية (السلطان التركي يهدي الارض الكُردية للكرد، وحق قول قائل: وهب الأمير ما لايملك... يا لمهازل التاريخ... اين كان الترك بسلاطينهم عندما كان الكُرد في كُردستانهم؟!...

المؤلف) ونعود إلى ما كان سايكس قد بدأ به، إذ يذكر ان قبيلة الزركان التي جاء ذكرها، وقعت في الفخ، فقد زرعوا الارض وكانت كميات التبن كافية لاطعام مواشيهم واصبح لديهم ما يكفي للبيع. ولكن بما ان الناس لم تستطع ان تخدم قطعانها ومواشيها كما كانت تفعل قبل إستقرارها مما ادى إلى تقلص وتقهقر في الكمية والنوعية الانتاجية عاماً بعد عام. ان آلهة الانتقام Nimesis التي ستبدأ بصب لعنتها على هؤلاء الناس سيئي الحظ لم تكن متوقعة بعد...

ويضيف سايكس، في الوقت الحاضر -مع بدء القرن العشرين- نجد زراعة فقيرة في السهول وضعف في العلاقات العامة، مما ادى ان يكون لكل القمح اسواق محلية وعندما تكون مناطق شمال وادي الرافدين مزروعة فان كل منطقة شمال كُردستان تكون طافحة بقمح رخيص وتنتج حاصلاً تعيساً بعرق رجال قبيلة الزركان، والذي يكون عديم الفائدة، واما قطعانهم فانها تنحرف نحو الاسوأ فوجدوا انفسهم يواجهون الافلاس والهجرة... والسبب هو قلة الخصوبة وعدم صلاحية الارض في المناطق التي سكن فيها هؤلاء.

وهكذا يمكن ان يتبين المرء في (ما دراك) عملية التتريك، الاغوات يعيشون في ارزروم والنسوة تحجبن بالبراقع، وهناك جامع وامام، وتعلم الرجال اللغة التركية. وبدأ البعض منهم، في الحقيقة، يتكلمون بها مع بعضهم! (٤٠٤) وهكذا يتم توطين القبائل أو بالاحرى تدجينهم تركياً تحت غطاء انقاذهم من حالة البداوة إلى حالة التمدن والزراعة.

ان الصورة المأساوية التي يرسمها مارك سايكس كواحدة من صيغ التتريك تناولها السير كينيث ماسون محاولاً بدوره ان يوضح الغرض السياسي الاصيل الكامن في عملية توطين القبائل الكُردية الرحل. ويعلق عليها قائلاً، انها ليست لمصلحة الكُرد بل لصالح الدولة وذلك لمنع احتمال قيام منظمات كردية ضخمة تزعج تركيا لان إقامة القرى والتوطين هي في الواقع عملية تشظية وتفتيت للقبائل الضخمة وتحويلها إلى قرى متناثرة (٣٣٠).

نعود إلى سايكس الذي يحدثنا -بطرافة- عن تجربة القوات الكُردية الحميدية لقد ارتأت الدولة العثمانية تشكيل قوات كردية عشائرية مسلحة اطلق عليها السلطان العثماني اسمه فسميت بالقوات الحميدية وكان ذلك في عام ١٨٩١ والغرض منها (الجهاد!) ضد الأرمن والمسيحيين وقد تم تاليب رؤساء العشائر من خلال جيوبهم وعقولهم ولكن في الحقيقة كانت العشائر الكُردية المنتمية إلى هذه القوات وقوداً تحرقه الامبراطورية العثمانية في صراعها مع روسيا القيصرية من جهة وكانت روسيا القيصرية بدورها تحرق المسيحيين في اداء حربها مع الدولة العثمانية وليس ادل على ذلك من موقف الدولة الروسية التي ادارت ظهر المجن إلى المار شمعون وهو في احرج لحظاته عندما وصل إلى اول مخفر عسكري على الحدود التركية

الروسية وابرق إلى العاصمة الروسية لعلمهم بحراجة الموقف واحتمال تعرض قومه إلى الابادة ولم تحرك روسيا ساكناً فاضطر إلى العودة مسرعاً طالباً من قومه الفرار من تركيا إلى إيران.

ان قوات الحميدية هذه وما شابهها من قوات استخدمت في تركيا لم تستخدم ضد الاقوام الأخرى حسب بل استخدمت ضد نفسها ايضاً ونعتقد ان السير سايكس مارك استطاع في حينه تشخيص مهزلة الفرق الحميدية في وصف دقيق لهم ولضباطهم، ففي زيارته لمدينة خينس في كُردستان تركيا يذكر سايكس ان المتصرف (المحافظ) استقبله باحتفالية عظيمة وعرفه على ضابطين كئيبين يقودان قبيلتي زركان وجبرانلي في قوات الحميدية ويضيف، انه لاحظ على وجهيهما عدم القناعة والخجل وهذا ما لاحظه لدى جميع من يحمل هذا المنصب من الذين تزعموا العشائر، ويذكر بالرغم من انه لم يسمع عنهم شيئاً مشيناً لكن عيونهم كانت هي التي تتكلم بوضوح أكبر مما يمكن للكلمات ان تقول كانوا -والحديث لسايكس- كمن يريدون ان يقولوا، نحن في موقع سخيف نخجل منه كثيراً... من فضلك لاتضحك علينا لانها ليست غلطتنا (٤٠٦).

ويذكر سايكس حول موضع الفرق الحميدية انه عرف من بعد ان بعض الضباط الصغار في مدينة وان كانت لهم علاقات مع القادة الثوريين في المنطقة، ولما كانت رواتبهم قليلة فقد كانوا يلتجئون للاقتراض من الثوار وفي بعض المناسبات يزورونهم في الجبال.

ويعقب سايكس ان الضابطين المرافقين له في رحلته قد افصحا له الموقف، فقد وقف على مشاعر الضباط الأتراك ازاء الفرق الحميدية فهم يعتقدون ان الحكومة التركية الحقت بالجيش العار عندما شجعت الكُرد للإنخراط في فرق الحميدية، وان ضباط الجيش كانوا على حذر تام، ويعتقدون ان القوات الحميدية هي قوات غير مخلصة، وبالرغم من ذلك كانوا ملزمين بالتغاضي عن اخطائهم وخروقاتهم. وان الفرق الحميدية كانت تعاقب بواسطة المحاكم العسكرية وكانت هذه المحاكم قد استلمت اوامر سرية بان تبرئ المدانين أو إذا انزلت ببعضهم العقاب فلتكن العقوبات اسمية (أي غير فعلية).

وقد انقلب هذا العار برمته على الجيش واصبح كل ضابط موضع سخرية واحتقار الموظفين المدنيين له مما ادى إلى تفاقم سوء العلاقة بين الموظفين المدنيين والعسكريين، وبسبب حقيقة ان العسكريين كانوا دوماً يعانون من التقتير عليهم بينما لم يكن المدنيون كذلك، وفي المستويات الدنيا كانت المشاعر نفسها تماماً، فالجنود كانوا يرون ان القوات الكُردية غير النظامية تتمتع بكل الاجازات ولهم الحرية بينما هم أي الجنود كانت تطبق عليهم الضوابط القاسية وكانوا نادراً ما يحصلون على ما يكفي من الغذاء للعيش (٤٢٠).

لقد اشار عزيز الحاج الى ان هذا الزواج السعيد بين رؤساء عشائر القوات الحميدية والدولة

التركية لم يدم طويلاً لان هذه القوات مطالبة بسحق الحركات القومية الكُردية لا بل اصبحت تحاسب على مدى حماسها في عمليات السحق وان المبررات الدفاعية ذات الطابع القومي في محاربة الأرمن بدأت تتلاشى بعد ان انتهى هذا الدور والذي اساء إلى سمعة الكُرد في الحقيقة بسبب من قوة الاعلام لصالح الأرمن والذي تسرب إلى اوروبا ولكن ما من احد كان يتحدث عن نزعة التوسع الأرمني على حساب الأراضي الكُردية وما من احد يتحدث عن غزو روسيا للأراضي العثمانية (أي الكُردية) وكانت روسيا قد جندت القوات الأرمنية غير النظامية التي حصدت رؤوس اعداد غفيرة من الكُرد في تركيا وقد ذكرت المصادر المعنية ان عشرات الالاف من الكُرد قتلوا خلال الفترة ١٩١٥-١٩١٨ في المناطق الشرقية من تركيا (أي كُردستان).

لقد تعرض الأرمن إلى مجزرة على يد القوات العثمانية ولكن تلك القوات أي التركية قامت بحرق القرى الكُردية وتشريد اهلها نتيجة عدم مساعدتهم لها ضد القوات الروسية التي كان الأرمن بمعيتهم (١٢).

إدموندز

زار إدموندز كُردستان مرتين وعايش الاحداث السياسية الساخنة هناك. ويتحدث إدموندز عن الظروف التعيسة التي عاشتها السليمانية عندما وصلها نويل عام ١٩١٨ قبل ان يتحدث عن إنطباعاته الشخصية. إذ يذكر إدموندز ان المجاعة كانت قد حصدت ارواح الكثير من البشر والحيوان في عام ١٩١٨ إذ الفى نويل جثث الموتى ملقاة في الشوارع والمنازل التي تركها اصحابها وحصلت حوادث اكل فيها الجائعون لحم اخوانهم البشر ولم يبق من السكان الأصليين غير الثلث. ويضيف إدموندز ان من اول واجبات نويل آنذاك كان تأمين الغذاء للجائعين والكساء للعراة والبذور وحيوانات الحراثة والادوات الزراعية للفلاحين فلم تنس له هذه الخدمات الإنسانية وظل الكُرد سنوات وسنوات يلهجون شاكرين بهذه الخدمات (٧٩).

ان ما ذهب اليه إدموندز كانت قد أكدته المس بيل في مذكراتها إذ تشير الى وصول الميجر نوئيل الى السليمانية في منتصف تشرين الثاني وتصف استقباله من قبل اهالي السليمانية بالاستقبال المدوي، وكانت البلدة وتقصد السليمانية قد غدت نصف خربة فبادر هذا الى ادخال جهاز موقت للحكومة يكون مقبولاً عند الاهالي ومطمئناً لامانيهم في تأسيس إدارة كردية (١٨٩).

يعتقد إدموندز ان طرح اقتراح تكوين دولة كردية تتمتع بالحكم الذاتي في السليمانية والمناطق الكُردية الأخرى المجاورة هي سياسة فرضتها على الحكومة البريطانية إعتبارات

عسكرية أكثر منها سياسية (٦٠).

ويمكن ان نستنتج مما اشار اليه إدموندز هنا ان مغازلة الكُرد بتحقيق امانيهم القومية كانت مسألة تكتيك عسكري أكثر من ان يكون ذلك الغزل سياسياً لكن يبقى السؤال (لماذا؟) أي لماذا لم يكن من صالح بريطانيا آنذاك ان تكون جادة في تكوين دولة أو كيان سياسي كردي، ولماذا هذا التذبذب؟ ان بريطانيا لم تكن جادة في معاهدة سيفر وهي الدولة ذات الباع الاطول آنذاك؟ وفي زمن كانت (تفصل) خرائط الدول في الشرق الاوسط لا بل اصطنعت بعض الدول التي لم تكن موجودة أساساً ترضية لهذا الملك أو ذاك الامير.

ان إدموندز يشك في الدعوة القومية للشيخ محمود فهو أي إدموندز يعد تلك الدعوة القومية بمثابة العباءة لتغطية طموح زعيم فرض نفسه (٦٠).

وعلى الرغم من المبررات التي يأتي بها إدموندز حول هذا الموضوع ولكن تاريخ الشيخ محمود ليس ببعيد ولايمكن تجريد الشيخ من نزعته الكُردية ورغبته الجامحة في إقامة كيان كردي، وهل هناك من زعيم في التاريخ لم يلتفت الى نزعاته الفردية وتوطيد دعائم وجوده كزعيم في المنطقة.

ان إدموندز يرى ان الشيخ محمود وجد في نفسه (عبد الرحمن باشا) ثانياً، ويقصد بعبد الرحمن باشا أمير بابان في القرن التاسع عشر وهذا الـ(عبد الرحمن باشا) الذي ظهر في القرن العشرين أي الشيخ محمود وجد نفسه مع حكومة بريطانيا مسايرة لينة تتدخل لا لتفرض سلطانها على حكمه الاوتوقراطي بل لتحول دون تدخل الإيرانيين والحكومات العربية تباعاً إذ كان حكام كرمنشاه وباشوات بغداد يتدخلون في امور السليمانية على ما يذكره إدموندز (٦٠) وهذا واقع تاريخ موجود قبل الشيخ محمود لذا بحسب تحليل إدموندز ان الشيخ محمود وجد في الإنكليز من يحول دون تدخل إيران والعراق في شؤون الكُرد. واذا كان تعليل إدموندز صحيحاً، نقول ولم لا؟ وما هو الخطأ في ان يفكر الشيخ محمود كذلك؟ افليس الوجود والنفوذ البريطاني في بغداد وانتداب العراق بعد الحرب معناه درء أي تدخل من خارج العراق في شؤون العراق؟ ان هذه المهمة وضعتها بريطانيا على عاتقها من اجل ان تتبلور وتتطور الحكومة العراقية (الوطنية) الفتية آنذاك.

نحن نعتقد ان ما ذهب اليه إدموندز زعم ليس في موضعه لسببين اولهما سبب نفسي هو اننا لايمكن ان نجد في شخصية قيادية لقضية سياسية دون ان تتمتع هذه الشخصية بسمات الزعامة والقدرة على التزعم وكلا الأمرين يرتبطان بعضهما ببعض لا بل يتفاعلان وهذا امر طبيعي وثانيهما ان الشيخ محمود كان واضحاً في طلبه وكان طلبه لاينطلق من إجتهاده الشخصي فحسب بل من اعلان بريطانيا نفسها انها جاءت لتحرير الاقوام الشرقية من نير

الحكم التركي.

يذكر ارنولد ولسن في هذا الصدد ان الشيخ محمود سلم له وثيقة متفقاً عليها تحمل تواقيع ما يقرب من اربعين رئيساً وهذا نص الوثيقة: لما كانت حكومة صاحب الجلالة قد اعلنت عزمها على تحرير الاقوام الشرقية من نير الحكم التركي ومنح مساعدتها لهذه الاقوام على تأسيس إستقلالها، فان الرؤساء بصفتهم ممثلين لاهالي كُردستان يرجون الحكومة ان تقبلهم ايضاً تحت الحماية البريطانية وتلحقهم بالعراق لئلا يحرموا من منافع مثل هذا الإرتباط ويسترحمون من الحاكم الملكي العام في العراق ان يبعث لهم ممثلاً عنه مع المساعدة الضرورية التي تمكن الشعب الكُردي من التقدم في ظل الاشراف البريطاني تقدماً سلمياً على اسس مدنية. واذا ما قدمت الحكومة مساعدتها وحمايتها للاكراد فهم يتعهدون بتقبل اوامرها ومشورتها (١٧٩). ان هذه الوثيقة في نظرنا تدرء عن الشيخ محمود فرديته وتؤكد عدم تخليه عن ذاتيته فهي مرفوعة من (الرؤساء بصفتهم ممثلين لاهالي كُردستان) هذا من جهة ومن جهة أخرى فان طبيعة النظام الاقتصادي الإجتماعي في السليمانية كان امتداداً للقبيلة وليس من المتوقع آنذاك ان يتزعم الحركات الوطنية غير وجوه المنطقة البرجوازيين ولابد ان يكون لهذه الوجوه، وجه يمثلهم. ان الظروف التي ساعدت (الحسين) على ان يكون متحدثاً باسم الثورة العربية هي ظروف دينية اقتصادية إجتماعية وهي نفسها التي اهّلت الشيخ محمود تلك الشخصية الدينية البرجوازية الإجتماعية (الكارزماتية) التي جعلته يتحدث باسم حقوق الكُرد وتحرير كُردستان من النير التركي والمطالبة بتشكيل دولة ذات حكم ذاتي لكن للاسف نجد ان إدموندز جعل من مطالب الشيخ محمود (عباءة) كما اسلف لتغطية زعامته (٦٠) ولاندري لماذا لم يكن للحسين عباءة ولا لفيصل من بعده؟ في تزعم سوريا حيناً والعراق حيناً اخر، أي في أراضي ومجتمعات هي ليست أراضيه ومع تقديرنا للعلاقة بين الأصقاع العربية، لكن السؤال مازال قائماً ألم يستطع العراقيون بأجمعهم انجاب ملك عراقي من بينهم؟

على أي حال منح الشيخ محمود كتاباً خاصاً يسمح فيه اية قبيلة كردية تريد ان تنضوي تحت زعامته في المنطقة الواقعة بين الزاب الكبير إلى ديالى واستثنيت من ذلك القبائل الساكنة في المناطق الإيرانية، هذا ما ذكره ويلسن وهو يؤكد انهم أي الإنكليز كانوا قد قرروا تأييد الشيخ محمود (معنوياً) في حكم المناطق المذكورة بالنيابة عن القوات البريطانية لكن ويلسن يؤكد ان منطقتي كركوك وكفري وسكان مدنها راغبتان في الخضوع لسيطرة الشيخ محمود.

يتحدث إدموندز عن مجيئه الى كُردستان في عام ١٩٢٢ ويبدو انه لم يكن سعيداً

بتعيينه بمنصب معاون ضابط سياسي في حلبجه فقد شغل على ما يذكر وظائفاً اهم قبل ذلك لكنه عد التعيين الجديد (مهمة خاصة).

انه يثني على زميله السابق (سون) الذي اثر الاستقالة ويصفه بانه كان حازماً، اما خلف سون (كولد سميث) فيصفه بانه كان إنساناً لطيف المعشر الا ان صحته لم تكن على ما يرام.

وقد وصف إدموندز المعاون السياسي الضابط الذي حل محله في حلبجه بانه كان متوتر الأعصاب على شفا الإنهيار العصبي فقد كان رجال القبائل الكُردية في جبال هورمان بقيادة محمود خان دزلي يغيرون باستمرار على راوندوز من الجهة الإيرانية بعد ان اسهم محمود خان اسهاماً فعالاً في ثورة الشيخ محمود سنة ١٩١٩.

ان إدموندز يصف موقف الضابط السياسي في حلبجه بالموقف الصعب بسبب ما يسميه بالمكائد التي كانت تحاك في حلبجه بين قبائل الجاف التي تسيطر عليها عادلة خان التي جاء ذكرها في هذا الكتاب أكثر من مرة (١١٢).

ان إدموندز يصف عادلة خان بالسيدة المخلصة لبريطانيا، ولكن على ما يبدو ان بريطانيا أو السياسة البريطانية لم تكن قادرة على الإستمرار أو الحفاظ على حالة الرضا هذه. ان ما يذكره إدموندز بالنسبة الى عادلة خان يمكن ان يصدق على عدد من الزعماء الكُرد بسبب تذبذب السياسة البريطانية ازاء الكُرد أساساً وقد سبق وان اشرنا الى ذلك.

يصف إدموندز من جديد النشاطات التي بذلت من قبل شيوخ البرزنجة المنتشرين في الاجزاء الوسطى والجنوبية من القسم الاداري الذي كان يديره وفي المناطق المجاورة من كركوك بانها حرب اعصاب تتستر تحت واجهة القومية الكُردية وتستهدف إعادة الشيخ محمود الى وطنه وتنصيبه بالطبع رأساً للدولة، إذ كان الشيخ محمود المنفي الى الهند قد اعيد منها الى الكويت، ويعلن إدموندز ان الناقمين على القانون كانوا يدعمون هؤلاء الشيوخ ويعني شيوخ برزنجة (١١٣).

ونحن نعتقد ان إدموندز يخطئ ثانية بحق القضية الكُردية، فهو يعتقد ان استتباب القانون هو البديل عن المطامح القومية الكُردية لانه لم يكن على ما يبدو مؤمناً بان حقيقة الجرح الكُردي هو جرح قومي اما الفوضى فهي حالة طارئة وافراز لابد منه... ان استتباب الامن ووجود مسؤول اداري بريطاني في المنطقة مع استمرار غموض الموقف السياسي هو الذي كان يجعل الثوار الكُرد غير مطمئنين، وان البيروقراطية الادارية في المنطقة تذكرنا بالكيك الذي اقترحت ماري انطوانيت اعطاءه للشعب الفرنسي الجائع المطالب بالخبز... لاندري هل ان إدموندز كان جاهلاً بحقيقة الجرح أم متجاهلاً... وماذا لو سئل اليوم عن ذلك. هل حقاً لم يكن

يشعر بوجود طموح كردي مشروع لإقامة كيان سياسي مستقل؟ اذن ماذا دار في اروقة عصبة الأمم؟ وماذا تعني معاهدة سيفر؟ وماذا كان يدور من نقاش بينهم وبين الشيخ محمود؟ وما معنى الاستفتاءات التي قوطعت؟ وماذا كان يريد الجنرال شريف باشا في مذكرته والذي جاء ذكره في كتاب إدموندز نفسه.

ان إدموندز يذكر ان وجهة نظر الموظفين البريطانيين في وزارات بغداد ودوائرها، واظنه يقصد المستشارين فقد كان لكل وزير مستشار بريطاني (هو في الواقع الوزير)، قد اتفقت أي وجهة نظر هؤلاء مع وجهة نظر (القوميين العرب) في رفضهم الاعتراف باي حق في المساعدة لهؤلاء الكُرد الذين اصروا ان يكونوا خارج الاطار السياسي الذي تقرر آنذاك (١١٤).

يبدو ان شخصية الشيخ محمود لم ترق لإدموندز فضلاً عما تناهى الى سمعه من وجود اصوات مناوئة للشيخ جاءته من كركوك ومن مناطق أخرى هذا من جهة ومن جهة أخرى فان إنطباع إدموندز عن كُردستان، انها بلاد يجد تسعة اعشار سكانها واجبات المواطنة الصادقة فرضاً وعبئاً ثقيلاً فتصبح مهمة الضابط السياسي مهمة عسيرة لايمكن وصفها (١١٤).

على ما يبدو ان إدموندز كان قد ادرك عدم جدية بلاده في حكم هذه البلاد. ونعتقد ان إدموندز اصاب هنا كبد الحقيقة عندما يتكلم عن (زهد بلاده في حكم هذه البلاد) والسبب على ما نعتقد ان كُردستان لم تكن هماً حقيقياً لبريطانيا فضلاً عن ايمانها لا بل امساكها بقبضة السكين التي مزقت كُردستان في معاهدة سايكس بيكو، فان بريطانيا لاتفكر في إقامة كيان سياسي في جزء يمثل ربع كُردستان وتهمل ثلاثة ارباع كُردستان من هنا يجد إدموندز نفسه في صراع بين امرين ربما هذا الصراع لم يكن ذكياً بل كان انعكاساً حقيقياً لحرج السياسة البريطانية إذ يقول إدموندز، لايبقى الا الاختيار بين سياستين، اما ان يتخذ قرار من جانب واحد بدمج السليمانية وكركوك في الدولة العراقية شاء السكان أم أبوا وهذا سيكون نكثاً بالعهد وتخلياً عن الضمانات التي اعطيت في مجلس العموم البريطاني ومؤداها ان الكُرد لن يرغموا على الخضوع لاية حكومة عربية، وثانيهما استبدال الحكم البريطاني المباشر بحكم غير مباشر عن طريق المجيء بشخصية كردية بارزة تستطيع نيل الثقة الشعبية والدعم العام (١١٤).

يتحدث إدموندز بما يشبه (استحالة) العثور على شخص مناسب توكل اليه ادارة المنطقة ويتحدث عن احد اعضاء الاسرة البابانية الذي جيء به من بغداد ولكنه، كما يذكر لم يكن يجيد اللغة الكُردية ولم يكن مهتماً بمجريات الامور السياسية على ارض الواقع آنذاك قدر إهتمامه بتاريخ إمارة بابان ثم يتحدث عن إختلاف وجهات النظر بالنسبة لسيد طه الشمزيني

وإختلاف (نويل) مع مؤيدي فكرة تولية السيد طه.

الحقيقة، هي ليست مسألة العثور على شخص كما يعرض إدموندز المشكلة، فعندما ارادت بريطانيا ان تعثر على شخص مناسب يحكم العراق جاءت به من خارج العراق. نعم اتت بفيصل ونصبته ملكاً على العراق على الرغم من ان فيصل نفسه شعر منذ ان وطأت قدماه ارض البصرة حتى وصوله بغداد بفتور الاستقبال ولم يحظ فيصل بتأييد عراقي ساخن، أي لو لم ترغب بريطانيا في ان يكون فيصل ملكاً للعراق هل كان سيتوج؟ فلا ندري لماذا استعصت هذه المشكلة في كُردستان ولم تستعص في العراق؟

نعم ان بعض اهالي كركوك لم يكونوا راغبين بالشيخ محمود ولكن هل كانت مدينة البصرة والكوت والعمارة والناصرية والديوانية والحلة مرحبة بفيصل، لا بل هل كانت بغداد كلها مرحبة وفرحة بفيصل ان هناك مصادر عديدة ومذكرات لضباط وسياسيين بريطانيين واكبوا فيصل وجاءوا به وحضروا مراسم تتويجه وكتبوا بكل صراحة ان فيصلاً لم يحظ بما يكفي من تأييد جماهيري حتى انه، أي فيصل بدأ يعاني من الحرج وافضى بمعاناته الى (صناع الملوك) في بغداد آنذاك.

ان ما اشرنا اليه من قحط في الشخصيات المناسبة من وجهة نظر بريطانيا للقيادة يشير اليه لورنس نفسه ففي واحدة من رسائله التي وردت في كتاب السيد ويلسن عن (الثورة العراقية) يقول لورنس حول ازمة تنصيب شخص يقود العراق، ان البريطانيين في العراق لايستطيعون ايجاد شخص كفء واحد.

ويسترسل لورانس بشكل ساخر عندما يتحدث عن تشكيل حكومة عربية في العراق ان فيصلاً عندما شكل حكومته في سوريا فانها كانت من الضعف بمكان وهو يتحدث عما يسميه بال(القحط في المواهب المحلية) ان أي موظف بريطاني بإمكانه تشكيل حكومة عربية في بغداد تضاهي حكومة فيصل في الشام.

اذن، عندما نقرأ ما ذكره إدموندز عن وجود شحة في الكفاءة عند الكُرد ونقرأ ما يذكره ارنولد ولسن ولورانس عن شحة الكفاءات المحلية في العراق ومن ثم استيراد ملك عراقي فشل في ادارة سوريا لتنصيبه ملكاً على العراق رغم انف العراقيين عندئذ لابد ان نتساءل عن معنى إسدال الستار على القضية الكُردية رغم انف الكُرد وتركها دون حل إنساني في وقت كانت كُردستان قد قدمت من خلال مجمل التفاعلات السياسية مع الإنكليز شخصيات وطنية لم تكن اردأ من غيرها ممن نصب ملكاً هنا واميراً هناك كالشيخ محمود الحفيد وسمكو شكاك وعبد القادر شمزيني والجنرال شريف باشا ممثل الكُرد في عصبة الأمم وامين عالي بك والسيد طه الشمزيني وسواهم.

يضعنا إدموندز عند وصفه للشيخ محمود، على انه رجل نزوات وتصرفات محيرة، هكذا نستنتج من إدموندز الذي يصف الفترة التي احتل فيها الشيخ محمود مدينة السليمانية.

انه يصف الصراع الصامت بين الميجر سون الحاكم السياسي آنذاك في زيارته الثانية للسليمانية أي عندما وصلها وهو غير متنكر، واحاسيس الشيخ محمود الذي كان قد امتلك القناعة من انه سيجرد من صلاحياته وسلطانه فلم يفوت الفرصة بل باغت الإنكليز بثورته ودخل السليمانية تسانده قبائل الهماوند والجاف وهَورَمان. وسيطر الشيخ محمود على المدينة بسرعة فائقة ولم يكن سون آنذاك في السليمانية، ووضع يده على الخزينة وانزل العلم البريطاني ورفع علمه الوطني واعتقل كل الرعايا البريطانيين (٣٤).

ويعتقد إدموندز ان من حسن حظ سون انه لم يكن في السليمانية والا فان الشيخ محمود كان سيقتل سون، والحقيقة فاننا نعتقد ان إدموندز بالغ في قراره هذا عندما يقول، ما كان الشيخ ليتردد في قتل شخص يراه أعدى اعدائه.

نحن نعتقد ان الشيخ كان سيلقي القبض على سون ويأسره اما قتله فأمر نستبعده عن الشيخ محمود وقد اسر الشيخ محمود في قتاله مع الإنكليز ضباطاً طلب لهم العلاج من الجيش البريطاني وقد ذكرنا هذا في موضع آخر من هذا الكتاب.

ويصف إدموندز النصر الذي احرزه الشيخ محمود على حامية كركوك البريطانية التي استهانت بقوات الشيخ محمود ولكنها دفعت الثمن غالياً مما زاد معنويات الشيخ ورجاله وزاد عدد المقاتلين الذين انضموا اليه.

يأتي ذكر محمود خان دزلي عميد اسرة بهرام بك في مذكرات إدموندز، فقد سافر إدموندز الى قرية (يالايني) الواقعة على هضبة في منطقة هورامان، ويذكر إدموندز ان محمود خان دزلي كان قد عاد تواً من منفاه في الهند وبعد عودته مباشرة رفع من جديد لواء الثورة كما يقول إدموندز (يقلق المنطقة) مما اضطر القوة الجوية الى تحجيمه وطلب العفو.

يصف إدموندز زيارته هذه والرجال المدججين بالسلاح إذ تتقاطع اجندة الرصاص على صدورهم وهم يحملون بنادقهم كما ويصف جمال المنطقة التي زارها ويذكر ان كلاً من الليفي بقيادة الجنرال ناتينكيل كانوا قد شنوا هجوماً على هذه المنطقة كما يشير إدموندز الى تقرير المندوب السامي في ١٩٢٢-١٩٢٣ الذي يطلب فيه من إدموندز إقامة إتفاق مع دزلي.

ومن الإنطباعات التي ذكرها إدموندز عن هذه المنطقة ان الفتى ما ان يبلغ سن الحلم حتى يكون قد حمل السلاح واقتنى بندقية. ويؤكد إدموندز ان في كُردستان لاشيء ارخص من حياة البشر ويتساءل كيف والى أي مدى يستطيع الضابط السياسي ان يبرر لنفسه وضع حياته

ومقدراته تحت رحمة أو سيطرة رجل قبلي مثل هؤلاء (١٦٦).

والحقيقة فان ما شاهده أو ما ذكره إدموندز من إنطباعات، تبقى مبتورة ما لم ينصف المشاهد الأجنبي المسؤول سياسياً وعسكرياً عن المنطقة (أسباب) استرخاص الروح الإنسانية...

ان إدموندز لايشير الى القوات البرية والجوية البريطانية التي تقتحم المنطقة وتريد ان ترضخ القبائل الى ارادتها دون ان تعامل هذا الشعب معاملة إنسانية ودون ان تمنحه حق تقرير مصيره التي كانت قد اقرت بعد ان وضعت الحرب العالمية الأولى اوزارها. ان معاملة بريطانيا لم تكن أكثر من تعامل الفرس أو الترك مع الكُرد والغريب ان بريطانيا المتحضرة جداً (حتى آنذاك) كانت متوحشة جداً مع الكُرد ولعلي لا ابالغ اذا ما قلت كان على إدموندز ان يقول ان الإنسان الكُردي ارخص بضاعة لدينا نحن الإنگليز اثناء وجودنا في كُردستان لا بل الكُرد بمجموعهم، وسيبقى سؤال الشاعر الكُردي الوطني فائق بيكَس وخزة في الضمير البريطاني عندما القى قصيدته بمناسبة توديع إدموندز عندما غادر السليمانية.

يشير إدموندز الى طريقة التعامل مع القبائل الكُردية لكي يكون الضابط السياسي ناجحاً ففي رأيه ان الضابط السياسي يجب ان تكون لديه القابلية في دراسة الحالة النفسية لشيخ القبيلة هل هو يائس أم متفائل هذا من جهة ومن جهة أخرى ان يدرس الضابط السياسي مدى هيبة الحكومة في المنطقة وهذا ما يمكن معرفته من خلال مكانة الضابط نفسه لدى الناس في المنطقة التي يتواجد فيها.

ان إدموندز يعترف بوجود مواقف محرجة لايملك معها الا ان يقوم باعمال حاسمة من اجل ان لاتنتزع هيبة الحكومة، وهو في الواقع اعتراف ضمني بلاديمقراطية الاجراء. كما انه يعترف ان بعض الضباط السياسيين كانوا يقومون ببعض الاجراءات السخيفة (من وجهة نظر إدموندز) بسبب عامل الخوف والقلق الذي كان ينتاب هؤلاء الضباط السياسيين في كُردستان (١٦٦).

يحدثنا إدموندز عن إنطباعاته لا بل حالة الحرج التي كان يشعر بها والتي ربما لم تختلف عن حالات الحرج التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية قبل مجيء الإنگليز والحكومات المتعاقبة بعد الإنگليز. وهي ليست مسألة موالاة بعض رؤساء العشائر للسلطة ووقوفهم ضد الثوار الكُرد وعدم توقع هؤلاء ان تتخذ السلطة موقفاً محايداً من الجميع بعد استتباب الامن (على حد تعبير إدموندز) أي بعد ان يندحر الثوار.

ان إدموندز يسمي الأكراد الموالين لهم ضد الثوار بذوي القلوب المخلصة، ولا نود هنا ان نذكر اسماء الاغوات من ذوي القلوب المخلصة كما يسميهم إدموندز ولكنه كان يشعر بالحرج

أو صعوبة اقناع هؤلاء (المخلصين) بضرورة إتخاذ موقف محايد بازاء كل الكُرد. انهم يرغبون في استمرار عملية الانحياز السلطوي لهم (٢٠٩).

ان إدموندز يعتقد ان تحقيق الحياد تجاه الكُرد كلهم مرهون بمدى قوة الحكومة. ونعتقد ان المقصود من قول إدموندز هذا ان الحكومة عندما تجد نفسها قوية فانها لاتجد نفسها ملزمة بالاكتراث أو بالاستمرار على المودة الخاصة لمن كانت (قلوبهم مخلصة) والحقيقة نحن نعد هذا الذي يقوله إدموندز درساً بليغاً في التاريخ والسياسة الكُرديين.

يضعنا إدموندز من خلال إنطباعاته امام ظاهرة ادارية إجتماعية هي على ما يبدو من افرازات الواقع السياسي آنذاك وهي ان الامراء الكُرد كانوا قد خلعوا القاباً على بعض الاشخاص مثلما خلعت الدولة العثمانية ألقاباً كالباشا، وابناء الباشا هم بيكات، فان امراء الكُرد بدورهم كانوا قد خلعوا لقب آغا على بعض الاشخاص في كُردستان ولما انتزعت الدولة - أي الترك - السلطة من امراء الكُرد وما عادت هناك إمارات بقي هؤلاء الاغوات يمثلون طبقة لايمكن لعامة الناس الاستغناء عنها فهم (الاغوات) اصبحوا بمثابة الفئة التي تتوسط سواد الناس والدولة أي الفئة التي تتوسط الشعب والموظفين الترك الذين استلموا ادارة المنطقة بعد اسقاط الامارات الكُردية (٢٠٣).

لقد استطاعت هذه الفئة أي الاغوات من تثبيت مواقفها وتعميق جذورها - على ما نعتقد- بعاملين اولهما التأييد المادي والمعنوي من الناس فقد وجدوا انهم اقرب اليهم من الموظفين الأجانب فمنحوهم الولاء والعطاء كله وثانيهما ان الموظفين الأجانب وجدوا ان التفاهم مع الناس عبر هؤلاء الاغوات اسهل عليهم فعززوا من مكانة الآغا. حتى اصبح الآغا مستبداً حقيقياً بين ابناء عشيرته لا بل اصبح من (حقه) ان يستبد واصبح من (واجب) الفلاح ان يدافع عن استبداد الآغا وهكذا هي العبودية أو اللاديمقراطية وان تعددت اشكالها أو ازمانها أو اوطانها.

لقد اورد إدموندز مثالاً واقعياً يمكن ان يبرهن على صحة ما ذكرناه تواً من العلاقة بين الكُردي والآغا. فقد قص الشيخ محمد آغا بك من راوندوز قصته على إدموندز، لاشك انها واقعية، إذ ذكر محمد آغا ان اباه قام بقطع يد واحد من ابناء القبيلة عقاباً على سرقة اقترفها، وقلع عين رجل اخر لقيامه بجريمة، وقد انتشر الخبر حتى بلغ القائمقام التركي في راوندوز الذي امر بجلب هذين الشخصين للاستفسار منهما وضبط افادتهما ولكنهما عندما مثلا امام القائمقام اصرا على عدم وجود اي علاقة للشيخ بما اصابهما على الرغم من ان القائمقام حاول استعمال شتى الوسائل لجعلهما يعترفان (٢٠٤) وقد ذكرنا هذا المثال في فصل اخر من هذا الكتاب.

ان إدموندز يقف موقفاً سخيفاً من موضوع حقوق الشعوب في ثوراته. فهو يرى من مسألة الطاعة مسألة طبائع في اغلب القضايا، ولكي يبرهن على صحة ادعائه يذكر ان الاشخاص الأكثر إستعداداً لاثارة المتاعب لهم أي للإنكليز هم بصورة عامة اولئك الذين ناصبوا الأتراك العداء وثاروا عليهم مراراً.

الحقيقة ان المسألة ليست مسألة طبائع قدر ما هي مسألة رفض ثوري للأجنبي ورغبة عند شريحة من الناس في المجتمع كله ان يكونوا طليعة شعبهم ويطالبوا بالإستقلال وحق تقرير المصير فالأتراك هم الأجانب والإنكليز هم أجانب ايضاً فما هي وجهة العجب في ان يثور الكُرد على التركي والإنكليزي.

ان ما يبرر ما ذهب اليه إدموندز هو وجود اشخاص يسميهم باسمائهم بقوا مخلصين مع الإنكليز ولم يشقوا عصا الطاعة. ان هؤلاء من وجهة نظرنا هم (النفعيون) وهؤلاء يمكن ان نجدهم في كل مجتمع ايضاً اما ان يحيل إدموندز المسألة الى (الطبائع) فهذا خطأ علمي فادح لان حتى الحيوان عند وضعه في قفص وتقييد حريته من قبل (الإنسان) نجده يكافح (بطبعه) من اجل الإعتاق من القفص وفي أي فصيلة حيوانية تجدها (بطبيعتها) تختار واحداً من ابناء فصيلتها يتقدمها هكذا هي الطيور والذئاب والاغنام، وهناك قانون علمي لايقبل الشك هو ان كل صفة يشترك فيها الحيوان والإنسان معاً تعد صفة اصلية غير مكتسبة بل هي من الجبلة والطبيعة.

هاملتون

ربما امتاز هاملتون (١٩٢٨) عن سواه ممن زاروا أو عاشوا أو كتبوا عن كُردستان في مسألة نراها مهمة وهي انه عاد وكتب مقدمة إنطباعية عن كتابه بعدما يقرب من ٤٠ عاماً على الانتهاء منه، ذلك ان مترجم كتاب (طريق في كُردستان) طلب من هاملتون نفسه، ان يقدم للترجمة فكتب هاملتون مقدمة للترجمة العربية نراها في غاية الاهمية، ولذا فقد ارتأينا ان نطلع القاريء الكريم على بعض ما جاء فيها ما دمنا لم نخرج عن حدود أهداف كتابنا هذا في عرض وتحليل إنطباعات الزوار الأجانب لكُردستان.

هاملتون هذا المهندس القدير الذي شق طريقاً في منطقة وعرة من أربيل ومضيقي راوندوز وبرسرين الذي يعد من المآثر الهندسية الرائعة كما وصفها روبنسن في مقدمته لكتاب هاملتون لاسيما في ذلك الزمان، إذ لم يزود هاملتون إلا بعدات بسيطة وكان الاوروبي الاوحد بين عماله واضطر الى تلقين اصول النسف الجبلي وفنون شق الطرق وقام بنفسه بسبر اغوار الوديان وقياس اعماقها السحيقة مشرفاً على العمل بنفسه وإدارة شؤونه ووقف على اطعام

عماله وصرف اجورهم بيده فكان القائد والوالد والمهندس مجتمعين لهم في شخص واحد، ونهض باعباء هذه الادوار الثلاثة الكبيرة في مسؤولياتها طوال خمس سنين بين قيظ الصيف اللاهب وعواصف ثلج الشتاء الكاسحة حتى انجز عمله العظيم.

وقد اسعدني الحظ بلقائه -والحديث مازال للواء روبنسن- في كُردستان اثناء عمله هذا عندما كانت تلك البلاد التي هي اصعب بلاد الله ضبطاً ثائرة تغلي كالمرجل، فالكُرد يقاتلون العرب والكُرد يقتلون الكُرد، وحياة كل كُردستان في كفه.

تحت تلك الظروف يذكر روبنسن ان هاملتون كان يدير العمل بالكفاءة كلها مع مجموعته المختلطة من العمال إيرانيين وكرداً وآثوريين وعرباً يروحون ويغدون عزّلاً لايتعرض لهم احد بسوء هذا فضلاً عن الاثر النبيل الذي تركه في نفوس اولئك القبليين الموغلين في الجاهلية البعيدين كل البعد عن المدينة (١٠) ويقصد روبنسن العشائر الكُردية التي مر طريقه من بينهم في الربع الأول من القرن العشرين.

بدءاً تزامنت السنوات التي عمل فيها هاملتون في كُردستان ظروفاً صعبة ثورية كردية، وهو ينظر الى صانعي هذه الظروف نظرة إعجاب إذ يقول في المقدمة التي اشرنا اليها، ان في اثناء انتدابه الى كُردستان نبغ رجال حرصوا على الدفاع عن حقوق الشعب الكُردي منهم الشيخ محمود الحفيد. والشيخ أحمد البارزاني والشيخ سيد طه شمزيناني واسماعيل بك راوندوزي، هؤلاء كما يقول عنهم هاملتون، لم يجأروا بالشكوك ولم يقوموا بانتفاضاتهم المسلحة عبثاً (٦).

يتحدث هاملتون بنبرة ملؤها الاسف عن منطقة كُردستان الغنية بثرواتها لاسيّما المعدنية وعلى وجه التخصيص النفط الذي يباع الى صانعي الأسلحة ليعود سلاحاً ماضياً للقضاء على الكُرد انفسهم من قبل الحكومات التي تعاقبت حكم العراق.

فاذا تحدثنا في الحدود الزمنية التي كتب فيها هاملتون مقدمته التي تصدرت ترجمة كتابه للمترجم جرجيس فتح الله في مطلع السبعينيات نجده يحدثنا بلغة الارقام عن عوائد النفط العراقية التي بلغت زهاء (١٥٠) مليون جنيه استرليني سنوياً انفق العراق آنذاك (٦٠٠) مليون خلال ثمان سنوات لتسليح القوى البرية والجوية لمحاربة الملا مصطفى البارزاني.

الحقيقة ان الملا مصطفى البارزاني كان يقود ثورة كردية عادلة من اجل الحقوق القومية للشعب الكُردي، ولكن هاملتون يعلق على هذه الانفاقات ان جزءاً من هذا المبلغ كان كافياً لتعليم كل عراقي وتهيئة المستشفيات والمساكن والخدمات الإجتماعية له كما كان بالإمكان ان تساعد بجزء منه بعض الشعوب الفقيرة (٧).